

المبحث الخامس

الدروس العسكرية

١ - الخطة الدفاعية الكاملة لابد أن يعقبها هجوم:

يقول أ/ فرج: «إن انصراف الأحزاب عن الخندق - وإن كانت هزيمة لقريش - إلا أنه لم يكن انتصاراً كاملاً للمسلمين إذ عادت الجماعات إلى دورها - وخاصة قريظة - دون أن تُحاسب على غرورها وإثمها، فكان لابد من متابعة الانسحاب والقضاء على بني قريظة.

هذه العملية هي ما يُطلق عليه في الحرب الحديثة «تعزيز النجاح» أي متابعة الخصوم المرتدين وضربهم حتى لا تقوم لهم قائمة، وحتى تكون لهم عبرة إذا فكروا في المعودة.

كما أن هذه العملية تعتبر تنفيذاً عملياً للمبدأ القائل بأن الدفاع يجب أن ينتهي إلى الهجوم، إذ لا يحقق الدفاع وحده غاية المعركة، وإنما لابد في المعركة الدفاعية الناجحة من الانتقال إلى الهجوم^(١).

[انتصارات عربية خالدة لفرج ٤٧-٤٨].

٢ - أهمية الوقت في الحصول على النصر:

يقول ل/ خطاب: «انسحبت الأحزاب عن المدينة، وعاد المسلمون إلى ديارهم صباح ليلة الانسحاب، وأصدر الرسول ﷺ أمره الإنذاري للحركة إلى بني قريظة ظهر ذلك اليوم نفسه، على ألا يُصلي المسلمون العصر إلا في ديار بني قريظة.

لقد أدرك الرسول ﷺ بثاقب فكره أهمية الوقت في الحصول على نتائج باهرة في القتال، فلو أن الرسول ﷺ أبطأ بحركته هذه، لاستفاد يهود من الوقت في الاستعانة بحلفائهم أو إقناع يهود الآخرين بمعاونتهم، أو التثبُّت بالحصول على قوات من القبائل لتساند قواتهم، ولكان بإمكانهم إكمال قضاياهم الإدارية التي يحتاجون إليها في القتال، حتى يستطيعوا الصمود في حصارهم أطول مدة ممكنة.

ولكن إصرار الرسول ﷺ بتحريك قواته لتطويقهم، حالت بين يهود وبين كل ذلك، إذ لم يكن يهود يعلمون بالموعد الأكيد لانسحاب الأحزاب ليسبقوا النظر في إعداد كل متطلبات القتال المتوقع ضد المسلمين.

(١) في العرف العسكري العصري أن أية عملية دفاعية لا يتحقق الهدف منها إلا إذا تبعها هجوم - مهما تكبد الخصوم من خسائر في الأنفس والأسلحة والمعنويات - ولكن النصر رهن بهجوم يفصل في المعركة ويقضي على إرادة العدو ويجبره على التسليم.

وفي وقعة الخندق باءت محاولات المشركين بالفشل وتعرضوا للبقاء في العراء أياماً وليال بين قسوة ظروف الحرب واشتداد العواصف وما اضطرهم إلى الانصراف، ولكن لم تنزل بهم الهزيمة فكان لابد لدحرهم من عمليات هجومية يبادر إليها المسلمون.

ولهذا قال رسول الله ﷺ بعد الخندق: «لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا، ولكنكم تغزونهم».

بل إن حركة المسلمين السريعة لم تترك الوقت الكافي لليهود لتنظيم خطة دفاعية عن حصونهم، كما لم تترك الوقت الكافي لليهود لتنظيم أي خطة عسكرية على الإطلاق يقابلون بها المسلمين، فقد ظهر لنا من سير حوادث غزوة بني قريظة أنهم لم يفعلوا شيئاً، وكانوا مترددين في كل شيء.

وأكثر من ذلك فإن حركة المسلمين المبكرة شلّت معنويات يهود وقضت على روح المقاومة فيهم، فلم يستطيعوا أن يستفيدوا من المحسنات العسكرية التي كانت بجانبهم والتي كان بإمكانهم - لو أحسنوا التصرف - الاستفادة من تلك المحسنات لكي يقاوموا المسلمين وقتاً غير قصير. حصونهم قوية منيعة، وعددهم كبير، وسلاحهم وفير، والأرزاق والماء لديهم متيسران، كل ذلك يساعد على الصمود.

ولكن هذه المحسنات العسكرية التي بجانب يهود لا تفيد شيئاً ما دامت معنوياتهم منحلة تماماً، ولولا استفادة الرسول ﷺ من الوقت لتحسنت معنويات يهود ولا استطاعوا أن يقوموا بدور أكثر حزمًا من الدور الذي قاموا به (فعلاً) أثناء حصارهم.

ومما يزيد من قيمة حرص المسلمين على المحافظة على الوقت، أن ظروفهم لم تكن حسنة بعد انسحاب الأحزاب.

لقد كانوا منهوكي القوى لسهرهم الطويل على حراسة مواضعهم حوالي شهرًا في موقف عصب يحطم أعصاب أشجع الشجعان.

وكان الطقس باردًا، وقد تحملوا البرد في العراء وقتًا طويلًا أثناء حصارهم، فلما انسحبت الأحزاب أن لهم أن ينالوا بعض الدفء في بيوتهم القريبة.

وكانت قضاياهم الإدارية بشكل لا يُحسدون عليه.

إنَّ عدم اكتراث المسلمين بكل هذه المشاكل لغرض الإسراع بتطويق حصون بني قريظة يدعوا إلى الإعجاب والتقدير». [الرسول القائد ﷺ لخطاب ٢٥٧-٢٥٨].

ويقول عميد/ فرج: «من الواضح أن خروج المسلمين إلى بني قريظة تم في وقت لم يتصوره إنسان، فهم قد عادوا لتوهم بعد انصراف الأحزاب، فلم يكن أحد يتوقع القيام بعملية أخرى إلا بعد أن ينالوا قسطاً من الراحة، ولا شك في أن هذا التوقع كان عند بني قريظة أيضًا.

ومن هنا كان سير المسلمين إلى بني قريظة نوعاً من المفاجأة، مفاجأة في الزمن، فقد وجد بنو قريظة المسلمين أمامهم في موقف هجوم في وقت لا يتوقعونه، ولا شك في أن هذا النوع من المفاجأة كانت له آثاره عليهم، مما أدى إلى شل تفكيرهم وتعثر خطواتهم.

ولقد أدرك رسول الله ﷺ أهمية الوقت في الحصول على نصر سريع، فلو أنه ﷺ أبطأ في التحرك لاستفاد اليهود من الوقت من عدة زوايا:

- ١- كان في إمكانهم طلب العون من الخارج من اليهود والأعراب.
- ٢- كان في إمكانهم التجهيز في مواقع الدفاع بما يضمن لهم السيطرة على الموقف وحرية التصرف والحركة بما يخدم الموقف لصالحهم.
- ٣- كان في إمكانهم استكمال الشؤون الإدارية التي تلزم في موقف الدفاع كالمؤن والماء وإعداد ما يلزم من متطلبات القتال.

٤- كان في إمكانهم تنظيم وسائل الدفاع ووضع خطة دفاعية عن حصونهم.

وكان إصرار الرسول ﷺ بتطويق مواقعهم مفاجأة حالت بينهم وبين الاستعداد الكامل، كما أثرت هذه المفاجأة على معنوياتهم وروحهم القتالية، فأسقط في أيديهم، وتخبط آراؤهم، وضاعت بهم السبل، فاضطروا إلى التسليم وقبول حكم رسول الله ﷺ فيهم». [العبرة العسكرية لفرج ٣٠٦-٣٠٧].

٣ - أهمية السرعة في الحركة والمباغته:

يقول ل/ خطاب: «تكون المباغته بالوقت، والمكان، والأسلوب.

المباغته بالمكان: أن تقوم بحركة من مكان لا يتوقعه العدو.

والمباغته بالزمان: أن تقوم بحركة في وقت لا يتوقعه العدو.

والمباغته بالأسلوب: أن تقوم بالقتال بأسلوب جديد أو بسلاح جديد.

والقائد العبقري هو الذي يحاول أن يباغت خصمه حتى يقضي عليه مادياً ومعنوياً؛ لأن المباغته الناجحة تشل حركة العدو وتقضي عليه كلياً.

لقد طبق الرسول ﷺ كل أساليب المباغته؛ فقد رأينا كيف باغت الأحزاب بأسلوب جديد في القتال هو حفر الخندق، كما رأينا كيف أنه باغت قريشاً بالقتال بأسلوب الصفوف في غزوة (بدر) الحاسمة.

وفي غزوة بني قريظة باغت يهوداً بالزمان في حركته بسرعة ما كانوا ليتوقعوها، فشل معنوياتهم واحتفظ بالمبادأة بيده حتى نهاية المعركة.

إن المباغته أهم مبادئ الحرب قديماً وحديثاً، حرص المسلمون على تطبيق هذا المبدأ في أكثر غزواتهم، مما ساعدهم على النصر». [الرسول القائد ﷺ لخطاب ٢٥٨-٢٥٩].

ويقول د/ أبو فارس: «أخذنا هذا من قوله ﷺ: «مَنْ كَانَ سَامِعًا مُطِيعًا، فَلَا يُصَلِّينَ الْعَصْرَ إِلَّا بَيْنِي وَبَيْنَهُمَا»، ومن إجماع الفريقين الذين أدركتهم الصلاة في الطريق فمنهم من صلى ومنهم من أخر الصلاة حتى يصل إلى بني قريظة ويصل إليها هناك، إذ أجمعوا على وجوب السرعة، فكأن بعضهم يريد الاستمرار في المسير وعدم التوقف في الطريق حتى ولو لأداء صلاة العصر، حتى يصل إلى بني قريظة في أسرع وقت ممكن ويصل إليها هناك، وكأنهم بالآخرين يرون السرعة في السير والجد فيه، والصلاة في وقتها لا تعيق عن الوصول مبكراً إذا ما غدت الخطى، وأسرع الركب.

والسرعة في السير والوصول إلى بني قريظة في وقت قصير مباغتة لهم لا تدع فرصة لهم لتدبر أمرهم، وقد حط المسلمون فجأة وحاصروهم.

وأقول أيضًا: إن المباغتة عند العسكريين لها صور كثيرة، فقد تكون في الوقت، إذ يباغت الجيش عدوه بهجوم في وقت لا يتوقعه، ولم يخطر بباله، ولم يستعد فيه، فتكون الضربة مذهلة، صاعقة مدمرة له، تفقده وعيه، ولا يقدر على لم شتات جنده ويتلافى الضربة.

وقد تكون المباغتة بحشد أعداد ضخمة لا يتوقع العدو أن تكون بهذه الأعداد الضخمة، وبالتالي لم يحسب لها حسابًا في خطته، ولم يحشد لها من جنده ما يكافئها، فتقع الهزيمة.

وقد تكون المباغتة بسلاح فعال يستخدمه في قتال عدوه، وعدوه لا علم له بذلك السلاح حتى يستخدم سلاحًا مضادًا له، أو يتصرف تصرفًا، أو يضع خطة لإبطال مفعوله، ومن ثم تشل حركته، ويضطرب أمره.

وقد تكون المباغتة بمهاجمة الجيش لعدوه في جهة لا يتوقعها، ومكان لم يحصنه، ولم يحسب له حسابًا، وقد تكون المباغتة بوسيلة من وسائل الحرب كأسلوب القتال، فيفاجئه بأسلوب الصفوف، كما فعل ﷺ في بدر، وعدوه لم يألّف هذا القتال، بل كان لا يعرف إلا القتال الفردي الكر والفر، وقد تكون المباغتة بأسلوب الدفاع إذ يقوم الجيش بوسيلة للدفاع لم يتوقعها العدو، ولم يضع في خطته حسابًا لها، كحفر الخندق في غزوة الأحزاب، إذ فوجئ الأحزاب على كثرتهم بالخندق يحول بينهم وبين التقدم نحو المدينة، فشدّ هوا وحاروا ولم يستطيعوا أن يفعلوا شيئًا سوى الرجوع مدحورين إلى ديارهم.

والذي يدرس غزوات رسول الله ﷺ وسراياه يجد أن رسول الله ﷺ قد استخدم جميع هذه الصور في المباغتة.

ففي غزوة بني قريظة قد فاجأ رسول الله ﷺ يهود بني قريظة بأمرين:

الأول: الحشد الهائل الذي لم يكن باستطاعتهم أن يقفوا في وجهه، أو أن يقاوموه، أو يتقبوا سور حصاره، إذ حشد رسول الله ﷺ ثلاثة آلاف مقاتل وستة وثلاثين فرسًا، وهم في عددهم بين ستائة مقاتل وسبعائة مقاتل، إذ كان جيش المسلمين أضعاف جيش بني قريظة تقريبًا، مع قوة في الروح المعنوية عند الجند المسلمين، وضعف في الروح المعنوية عند اليهود، وشجاعة رجال العقيدة وثباتهم مشهود.

الثاني: لقد فاجأهم رسول الله ﷺ في الوقت الذي دهمهم فيه، إذ لم يخطر ببالهم أن يكون بهذه السرعة، ربما توقعوا نتيجة غدرهم وخيانتهم ونقضهم للعهد مع المسلمين أن يعاقبهم المسلمون بقيادة رسول الله ﷺ، إلا أنه لم يكن ليخطر ببالهم أن يتحرك المسلمون هذا التحرك السريع، ويضربوا الحصار حول بني قريظة؛ لأن الذي يخطر على بال بني قريظة أن المسلمين بعد حصار شهر تقريبًا في غزوة الأحزاب، قد

تعبوا، ومسهم البرد، وأضنائهم السهر، فهم بحاجة ماسة إلى الراحة، وبحاجة شديدة إلى الدفء، وبحاجة إلى النوم وقد كلت أجسامهم من السهر، نعم إن المنطق يقول هذا، هم يحتاجون إلى فترة من الاستجمام لا تقل عن شهر، ومن ثم يتحركون إن أرادوا، أما أن يتحركوا مباشرة، ويحملوا نفس اللواء الذي عُقد في الأحزاب إلى بني قريظة دون مهلة فهذا لم يكن في حسابان يهود بني قريظة، ففوجئت هذه المفاجأة التي شلت كل قدرة لها، كل هذا بتوفيق من الله ﷻ، وهدايته وإرشاده، وعونه ومدده وتسديده، له الحمد في الأولى وفي الآخرة، وله الأمر من قبل ومن بعد». [الصراع مع اليهود لأبي فارس ٤٩/٢ - ٥١].

٤ - أهمية أن يتقدم القائد وأقرباؤه الصفوف:

يقول د/ أبو فارس: «في اختيار رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب ﷺ ليحمل الراية في هذه الغزوة دلالة على أنه: ليس للقائد أن يضمن نفسه أو بأقربائه عن مواطن الخطر، بل عليه أن يتقدم هو ويقدم أقرباءه إلى أخطر المهات في أحلك الظروف، عليه أن يكون قدوة للناس بنفسه، عليه أن يكون قدوة للناس بأقربائه، فقبل أن يُعرضهم ويُعرض أقاربهم للفناء ينبغي أن يتعرض هو وأقربائه أولاً، حيثئذ فقط يسير الناس وراءه، ويفقدونه بأرواحهم وأموالهم، ويستهيئون بكل ما يبذلونه.

إن الناس حين يرون قاداتهم ينهزمون فلا لوم عليهم ولا عتب إذا فروا من وجه عدو، وإن الناس إذا رأوا أمراءهم قد انهاروا من أول صدمة وفي أول الطريق، فلا عليهم إذا لم يكملوا المشوار، إن الجنود إذا رأوا ضباطهم يعيشون في القصور الشاهقة والسيارات الفارهة، والرياش الفاخر، وهم محرومون من أسباب الحياة الحرة الكريمة، وإذا ما حزب الأمر، وادلممت الخطوب، وخشي الضابط أن يفارق قصره وزوجه وسيارته وأن يغبر زيه العسكري فلا لوم على الجنود المسحوقين إن هم ولوا هارين». [الصراع مع اليهود لأبي فارس ٥٢/٢ - ٥٣].

٥ - حرص الجندي على قائده:

يقول د/ أبو فارس: «لقد حرص علي بن أبي طالب ﷺ ألا يُسمع رسول الله ﷺ لفظة من يهود بني قريظة تؤذيه، وهذا الحرص يدل على حب عميق، وثقة أكيدة من الجندي بقائده. ونأخذ من هذا أن الأمة يجب أن تحفظ لقاداتها المخلصين، ولزعمائها المصلحين، ولعلمائها الناصحين مكانتهم، وأن تدافع عنهم، وترد عنهم كيد الكائدين، ودسائس الدسائسين، واقتراءات المفترين. وينبغي أيضاً ألا تسمح لنفسها بإذاء أبطالها، وتجريحهم وهم ما بنوا، بأن تكون يوماً لأعداء هذا الدين، من المستشرقين الطاعنين بهذا الدين ورجاله وقادته ومفكره». [الصراع مع اليهود لأبي فارس ٥٥/٢].

٦ - سرعة الاستعداد القتالي والجاهزية العالية للقوات:

يقول عميد/ كاخيا: «وتجلى ذلك بتنفيذ أوامر النبي ﷺ بالاستنفار الفوري والتوجه السريع إلى قتال اليهود في عقر دارهم «حصون بني قريظة» حتى إن بعض الصحابة لم يصل العصر إلا متأخراً بعد وصوله

إلى ساحة المعركة، واعتبر أمر النبي ﷺ واجب التنفيذ، فاستغرق وصول ثلاثة آلاف مقاتل بضع ساعات فقط». [الغزوات النبوية المطهرة من وجهة نظر فن الحرب لكاخيا ٨٣-٨٤].

٧- وجود الشؤون الإدارية في الميدان^(١) :

يقول ل/ خطاب: « الغنائم: قُسمت غنائم بني قريظة على المسلمين: سهم للراجل وثلاثة أسهم للفارس منها سهمان للفارس؛ وذلك تشجيعاً للإكثار من الخيل لفائدتها الكبيرة في القتال، وبقي الخمس للرسول ﷺ لتوزيعه على المحتاجين، ولتأمين إعاشة وركوب وسلاح المجاهدين الذين لا يجدون ما ينفقونه على أنفسهم في الجهاد.

لقد تحسنت الحالة الاقتصادية للمسلمين بهذه الغنيمة، فاستطاعوا الاستغناء عن بعضها لشراء الخيل والأسلحة من نجد استعداداً للعمليات الحربية المقبلة.

الماء: عندما وصل المسلمون إلى حصون بني قريظة، سيطروا على بئر تعود لبني قريظة بسرعة خاطفة للاستفادة من مائها في أيام الحصار.

ولولا سرعة المسلمين في الاستيلاء على هذه البئر، لكان من المؤكد أن تقوم قريظة بتغویرها حتى تحرم المسلمين من مياهها الضرورية لهم للصبر على القتال». [الرسول القائد ﷺ لخطاب ٢٦٣].

ويقول د/ الفنينسان: «يُقصد بالشؤون الإدارية «إمداد الجيش بما يحتاجه من طعام وشراب وسلاح»، وقد كان تسليح وإعاشة المسلمين قبل بني قريظة ضعيفاً جداً، تمر بهم الليالي ذوات العدد ما ذاقوا طعاماً أو شرباً، وكان تسليحهم أقل من اليهود، فلما فتحوا حصون بني قريظة، تحسنت حالهم من غنائمهم واستغنوا عن بعضها وباعوها وشروا بثمنها سلاحاً وخيلاً». [غزوة الأحزاب للفينسان ٢٤١].

٨ - إفقاد العدو وسيلة الإمداد:

يقول د/ أبو فارس: «إن إحكام الحصار حول بني قريظة بهذه السرعة الفائقة أفقد بني قريظة أي وسيلة للإمداد، سواء كان إمداداً عسكرياً، أو إمداداً مادياً، أو إمداداً معنوياً، إذ قطع الصلة بينهم وبين العالم الخارجي، ولم يبق لهم من مقومات القتال والثبات ما يجعلهم يصمدون في وجه الجيش الإسلامي». [الصراع مع اليهود لأبي فارس ٥٢/٢].

٩ - أهمية الكفاءة القتالية وقوة معنويات الجيش:

يقول عميد/ كاخيا: «بالمصابرة والمرايطة حول حصن الأعداء من بني قريظة ما يتوف عن خمس وعشرين ليلة، رغم أنهم رجعوا لتوهم من قتال الأحزاب في موقعة الخندق التي استمر شهراً طويلاً

(١) مبدأ من مبادئ الحرب الحديثة تختص بإمداد وإعانة القوات العسكرية - في الميدان - بجمع احتياجاتها الضرورية كالذخيرة والماء والطعام ووسائل النقل....

أيضاً، وبرزت القوة المعنوية لجيش الرسول ﷺ في موقف علي بن أبي طالب والزبير بن العوام، وأبي لبابة، وسعد بن معاذ رضي الله عنه. [الغزوات النبوية المطهرة من وجهة نظر فن الحرب لكاخيا ٨٤].

١٠ - كيفية القتال في المناطق المبنية وضد الحصون المنيعه:

يقول عميد/ كاخيا: «صادف الرسول ﷺ في معركة غزوة بني قريظة ظروفًا قتالية خاصة تختلف عن ظروف القتال في الشروط العامة، وهي القتال ضد الحصون والمناطق المبنية والأبراج والمناطق المزروعة، وهذا يفرض على القوات التي تصادف مثل هذه الشروط: أساليب قتالية معينة، وتدابير وإجراءات خاصة؛ لذا يمكن القول إن جيش الإسلام استفاد من القتال في معركة بني قريظة، وتعرّف على أساليب قتال اليهود؛ مما أهله للقتال ضد حصون خيبر الحصينة فيما بعد، واكتسب من ذلك خبرة قتالية لا بأس بها». [الغزوات النبوية المطهرة من وجهة نظر فن الحرب لكاخيا ٨٤].

١١ - الانضباط في الاستئذان من القيادة:

يقول د/ أبو فارس: «إن الجندي ينبغي ألا يتصرف أي تصرف من التصرفات التي لها علاقة بالجماعة، وبالصف المؤمن إلا بعد أن يستأذن من المسؤول أو القائد، لعله يسترشد بتوجيهاته، وعليه أن يعود إليه بعد ذلك بل ويطلبه، إن رسول الله ﷺ حين أذن لأبي لبابة رضي الله عنه وأرسله إلى يهود بني قريظة كان ينتظر عودته، حتى يسمع ما جرى بينه وبين يهود بني قريظة، ثم يتصرف بعد ذلك، وقد علمت أن رسول الله ﷺ قد استبطأ أبا لبابة رضي الله عنه، إذ تأخر في العودة إليه حتى يسمع منه، لكنه ذهب إلى المسجد النبوي ليكفر عما ارتكبه من خيانة». [الصراع مع اليهود لأبي فارس ٧١-٧٢].

١٢ - القوة طريق لإرهاب العدو واستسلامه:

يقول د/ أبو فارس: «إن طريق القوة والإعداد لتملك وسائل التأثير على العدو أمر من الواجبات الشرعية، التي خاطب الله بها عباده المؤمنين، فقال سبحانه: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]. إن قوة المسلمين في غزوة بني قريظة العددية والمعنوية كانت لها أثر قوي على بني قريظة، إذ استسلموا لإرادة الرسول ﷺ، وسارعوا إلى طلب سعد بن معاذ رضي الله عنه ليحكم بينهم».

[الصراع مع اليهود لأبي فارس ٩٩/٢].

١٣ - أهمية الجدية والحرزم لدى الجنود:

«إن جدية المسلمين وحزمهم هو الذي جعل يهود بني قريظة يرجون رسول الله ﷺ أن يحكم فيهم سعد بن معاذ رضي الله عنه، فحينما صدر الأمر العسكري باقتحام الحصون، واستعد الجميع لذلك، خاف بنو قريظة، واستسلموا». [الصراع مع اليهود لأبي فارس ٩٩/٢].

١٤- الاهتمام بوجهات نظر الجنود:

يقول عميد/ فرج: «فإن رسول الله ﷺ قد أمر أن يتحرك فور وصوله إلى بيته إلى بني قريظة، وهو قد أدرك موقفهم منه ومن المسلمين بالخذق، وأحس بما عاناه المسلمون من جهد وضغط وبلاء نتيجة موقفهم الذي فاق الحد، حين هاجموا بيته ﷺ وهو مشغول مع عدوه، وكان لابد أن يتخذ رسول الله ﷺ معهم - وقد استسلموا - أمراً يرقى إلى مستوى خيانتهم ويتناسب مع جرمهم، ولكنه ﷺ لم يشأ في موقف كهذا، أن يتخذ قراره بنفسه، وهذه كانت طبيعته في كل المواقف التي كانت تتصل بجماعته، وخاصة أنه رأى للأوس رأياً، وكان ﷺ يهتم بوجهات نظر أصحابه ويقدرها ويضعها موضعها؛ ولهذا رأى أن يترك الأمر لواحد من الأوس يقول الحكم بوحى من ضميره وقلبه وعقله، وهذه سنة حميدة لرسول الله ﷺ أكسبته كقائد عسكري محبة رجاله وثقة أصحابه وتعاطفهم معه تعاطفاً كان خيراً للإسلام وبركة». [العبرة العسكرية في غزوات الرسول ﷺ لفرج ٣٠٢].

١٥- من آداب الحرب في الإسلام:

يقول د/ أبو فارس: «من الآداب التي ينبغي أن تراعى في الحرب بين المسلمين وغيرهم ألا يقتل غير المقاتل من النساء والشيوخ والأطفال وغير ذلك، هذا هو أدب الحرب في الإسلام، وهذا ما كان يفعله رسول الله ﷺ والمسلمون، إذ لم يقتل من نساء بني قريظة إلا امرأة واحدة؛ لأنها شاركت في القتال، وقتلت أحد الصحابة وهو خلاد بن سويد».

ولقد كان رسول الله ﷺ يوصي الجيش المسلم أن يتجنب قتل النساء والشيوخ والأطفال، ورأى رسول الله ﷺ امرأة مقتولة، فأنكر قتلها، عَنْ رَبَاحِ بْنِ رَيْسٍ ؓ قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةٍ، فَرَأَى النَّاسَ مُجْتَمِعِينَ عَلَى شَيْءٍ، فَبَعَثَ رَجُلًا فَقَالَ: «انْظُرْ عَلَامَ اجْتِمَاعِ هَؤُلَاءِ؟»، فَجَاءَ فَقَالَ: عَلَى امْرَأَةٍ قَتِيلَةٍ، فَقَالَ: «مَا كَانَتْ هَذِهِ لِمُقَاتَلَةٍ»، قَالَ: وَعَلَى الْمُقَدَّمَةِ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ، فَبَعَثَ رَجُلًا فَقَالَ: «قُلْ لِحَالِدٍ لَا يَقْتُلَنَّ امْرَأَةً وَلَا عَسِيفًا».

[أبو داود في الجهاد (٢٦٦٩)، وابن ماجه في الجهاد (٢٨٤٢)، وقال الشيخ الألباني: حسن صحيح، ومسنند أحمد ٣٧٠-٣٧١/٢٥ رقم ١٥٩٩٢، ٢٩/١٥١ رقم ١٧٦١٠، وقال الشيخ الأرنؤوط: صحيح لغيره وهذا إسناد حسن].

وكان الخلفاء الراشدون رضيه الله عنهم بعد رسول الله ﷺ يودعون الجيوش ويوصونها بألا تقتل امرأة ولا طفلاً ولا شيخاً هرمًا، وألا تقطع شجرة لغير ضرورة حرية.

هذا أدب من آداب الحرب في الإسلام، فماذا تجد في جاهلية القرن العشرين وحروبها، يكفي أن نعلم أن أمريكا زعيمة الحضارة وأعظم دولة في العالم، تشن حملات الإبادة ضد الشعوب، فهي قد أفنت وأهلكت الهنود الحمر سكان البلاد الأصليين، وألقت القنبلة الذرية في ناجازاكي، فقتلت عشرات الألوف من الأطفال والنساء والشيوخ، وشوهت عشرات الألوف كذلك».

[الصراع مع اليهود لأبي فارس ١٠٤-١٠٥].

١٦ - دحض دعوى الحرب الدفاعية:

ويقول د/ البوطي: «إن قصة سعد رضي الله عنه هذه بملاساتها التي ذكرناها، تذكرك بما كنا قد قررناه سابقاً من أن الحرب الدفاعية في الإسلام ما كانت إلا مرحلة من مراحل الدعوة التي سار فيها رسول الله ﷺ، وقد جاءت من بعدها مرحلة دعوة الناس كلهم إلى الإسلام بحيث لا يقبل من الملاحدة والمشركين إلا الإسلام، ولا يقبل من أهل الكتاب إلا الدخول فيه والخضوع تحت حكمه العام، مع قتال كل من وقف دون هذه السبيل، ما دام ذلك ممكناً، وبعد استنفاد وسائل الدعوة السلمية المعروفة. وليس بعد تكامل الحكم الإسلامي فيما يتعلق بالجهاد والدعوة، أي معنى لما يسمى بالحرب الدفاعية التي شاعت أخيراً على السنة بعض الباحثين وإلا فما معنى قوله ﷺ: «وَلَكِنْ أَنْتُمْ تَغْزُونَهُمْ».

[فقه السيرة للبطي ٢٤١].

١٧ - للإعلام أثر في المعركة:

يقول د/ أبو فارس: «إن للإعلام الناجح أثراً على الروح المعنوية لدى العدو إذا ما وُجّه توجيهاً سديداً، واستلمه إنسان كفاء يعرف كيف يشن الحرب النفسية على عدوه، فيذكره بضغفه وبقلته أنصاره، وبمآله المحتوم ومصيره الذي يتظره جزاءً وفاقاً لما اقترفت يدها. والذي يدرس شعر حسان بن ثابت رضي الله عنه، فقد قام بدور قوي في تحطيم معنويات بني قريظة، كيف لا، ورسول الله ﷺ يقول لحسان بن ثابت رضي الله عنه يوم قريظة: «اهْجُ الْمُشْرِكِينَ، فَإِنَّ جَبْرِيلَ مَعَكَ» [البخاري في المغازي (٤١٢٤)]. [الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ٦١].

١٨ - ملاحظات على العرض التاريخي للغزوة:

يقول د/ المجدوب: «وهنا نعنُّ لنا ملاحظة على ما ورد بكتب التاريخ الإسلامي من أوصاف بشأن الغزوات والمعارك التي خاض المسلمون غمارها، فهم يُظهرون الأمر كما لو كان هجمة عشوائية شبيهة بالتظاهرات التي يقوم فيها الغوغاء باللقاء الحجارة على الشرطة، في عملية كروفر غير منظمة، بل تغلب عليها الفوضى والارتجال، وتسودها الفردية التي لا تخضع لأي ضوابط، ولا تلتزم بأي خطة. وهو ما نلاحظه في وصفهم لغزوة بني قريظة التي قالوا بشأنها: إن الرسول ﷺ تلقى الأمر من السماء بواسطة جبريل عليه السلام بعد عودته من غزوة الخندق مباشرة، بالهجوم على بني قريظة إلى آخر ما ذكرناه في هذا الشأن.

ويقولون: فانطلقوا، أي المسلمون، إلى أن بلغوا حي بني قريظة فحضر بوا عليه الحصار، وبطبيعة الحال فإن الصورة التي ستبادر إلى أذهاننا هي انطلاق جمع غفير من المسلمين يتراوح ما بين سبعمائة وثلاثة آلاف مقاتل، وهم الذين قيل إنهم كانوا يواجهون الأحزاب عند الخندق - إلى حيث يقيم بنو قريظة، ولا

ندري كيف كان سيرهم، أو ما سموه انطلاقهم؟ أكان مشيًا عاديًا متهاديًا، أم كان هرولة؟ أم كان جريًا؟ دون أن يحسبوا حسابًا لجيش بني قريظة المكون من ثمانمائة مقاتل أشداء، أخذوا الأهبة - ولا شك - بعد انسحاب الأحزاب وتوقعهم أن يتحول المسلمون إليهم ليتزلوا بهم العقاب الرادع - أن يشن عليهم هجومًا ما مباغتًا قبل وصولهم إلى حصون بني قريظة، أو أن يكلف بعضًا منهم مناوشة المسلمين في سيرهم أو جريهم والانقضاض على أطرافهم! في حين أنهم سيرون بدون نظام أو ترتيب.

ولست أخفي ما شعرت به دائمًا، وأنا أقرأ ما ورد في الكتب العربية بشأن الغزوات من دهشة شديدة للسهولة غير العادية التي اتسم بها إحراز المسلمين للنصر في معارك تغلب عليها السذاجة والارتجال، ويغيب عنها التنظيم وتفتقر إلى الإعداد المسبق والتخطيط وكأنها مشاجرة في حارة، أو خناقة في مباراة من مباريات كرة القدم، هذا في الوقت الذي يولي فيه هذا المؤرخ أو ذاك أمورًا أخرى قليلة القيمة أو عديمة الأهمية اهتمامًا شديدًا.

كذلك فقد نسي المؤرخون، في حديثهم عن انطلاق المسلمين إلى بني قريظة، المدينة ومن بها، حيث يقيم عدد كبير من المنافقين والذين في قلوبهم مرض ممن لا يؤمن جانبهم، وهم الذين ذمهم الله تعالى في سورة الأحزاب لما بدر منهم في غزوة الخندق التي لم يكن غبارها قد هدأ بعد، ولا قالوا لنا ماذا فعل الرسول ﷺ عندما مضى لغزو بني قريظة؟ وهل صحبه أو رفضهم واستبعدهم؟ وهل حسب حسابًا لما يمكن أن يفعله ضعاف النفوس والمنافقون أثناء غيابه؟ بل هل فكر أصلاً في المدة التي سيعيها عن المدينة في هذه الغزوة؟ وسوف نرى كيف أن كثيرين من الأوس - فضلاً عن أتباع ابن سلول - كانوا يعطفون على بني قريظة، ولا يرغبون في توقيع العقاب العادل عليهم، فهل كان الرسول ﷺ مدركًا لذلك؟ وماذا فعل وكيف تصرف قبل أن يترك المدينة إلى حصون بني قريظة؟

هذا ما سكنت عنه المؤرخون واكتفوا بالإفاضة في الحديث عن أمور ثانوية لا تقارن بها ذكرناه. والواقع أن التاريخ الإسلامي بحاجة إلى أن تُعاد كتابته، وفقاً للأصول العلمية الحديثة، بحيث نتجنب الحشو والمبالغة في الاهتمام بالموضوعات الثانوية والبعد عن الإفاضة فيما لا يُعد من التاريخ مثل جواز أداء البعض لصلاة العصر قبل بلوغ بني قريظة، فهذا من الأمور التي لا تدخل في مفهوم التاريخ، وبالتالي تستبعد منه وتوضع في مكانها من العلوم الأخرى، ومثلها كثير تم حشره في كتب التاريخ حتى تضخمّت بلا داع، في حين أهملت أمور على جانب كبير من الأهمية مثل الغزوات والمعارك، على الرغم من أن ما جرى فيها يُعد من الدروس الهامة التي يجب على المسلم أن يعيها جيداً، هذا فضلاً عن أن إبرازها في صورة صحيحة ودقيقة يجعل المسلم لا يستهين بها واجهه السلف العظام من صعوبات وما تحملوه من آلام ومعاناة من أجل أن يحافظوا على الدعوة سليمة قوية فاعلة.

وقد يقول البعض ممن لا تهمهم مثل هذه الأمور ولا يكفون عن ترديد العبارات التي تحمل معنى التواكل وعدم بذل الجهد والعناية اعتماداً على الله كما يقولون، قد يقول هذا البعض: إن المسلمين اندفعوا في غمرة الحماسة إلى تلبية دعوة الرسول ﷺ لهم بالانطلاق إلى بني قريظة لإيمانهم بأن هذا هو ما أراد الله، وبالتالي فإنه ﷺ سيحييهم من أي أضرار قد تصيبهم لأي سبب كان، كأن يكون اليهود قد نصبوا لهم كميناً أو كمان هنا أو هناك أو قيامهم بشن هجوم مفاجئ على جموع المسلمين قبل أن يصلوا إلى حيهم. ولكن أصحاب هذا القول يفوتهم أمر على جانب كبير من الأهمية، وهو أن الله تعالى الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، أمره وأمر المسلمين أن يأخذوا بالأسباب، وألا يتواكلوا فقال لهم: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ، عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

ولقد رأينا كيف أنهم لما أهملوا في أحد، وتخلت كتيبة الرماة عن موقعها طمعاً في الأسلاب، تخالفة بذلك الأمر الذي أصدره الرسول ﷺ إليها بعدم ترك موقعها مهما كانت الأسباب، حتى وإن رأتهم يهزمون - حلت الهزيمة بالمسلمين، وأي هزيمة؟ وما كان الله لينصرهم وقد أهملوا واستخفوا وخالفوا، وما ذلك إلا لأن الله يريد للمسلمين أن يكونوا أقوياء، أذكاء، يتميزون بالحصافة وبعد النظر، وبالوعي والفطنة وحسن التصرف، والمهارة لا أن يتخذوا من الإسلام مطية لبلوغ أهدافهم أو حصناً يرد عنهم شر أعدائهم دون أن يبذلوا جهداً أو يتحملوا عناء، أو يُعدوا أنفسهم لمواجهة أعدائهم مفضلين الترف والحياة اللينة على الكد والعرق والتضحية من أجل حياة كريمة آمنة حرة، يملكون فيها زمام أمورهم، ولا يخافون من شر ذمة حقيرة كاليهود أن ينقضوا عليهم، ولا يخضعون لمن يناصبون دينهم العداة ويكنون لرسولهم ﷺ الكراهية والبغضاء.

وما وجدناه متناثراً في بعض الكتب تبين لنا أن الأمر لم يكن كما يصوره المؤرخون هجمة عشوائية، أو مظاهرة فوزية تنتهي بإحراز المسلمين للنصر على أعدائهم، وإنما تنظيم متقن وتخطيط محكم وإعداد مسبق يأخذ فيه الرسول ﷺ بعين الاعتبار كافة الاحتمالات، ولا يترك شيئاً للمصدفة، فقد كان له عيونه، وهم رجال أمناء محل ثقة ينقلون إليه ما يريد أن يعرفه عن أعدائه.. وكان منهم المقيمون وسط الأعداء بصفة دائمة والذين يقومون بمهمة واحدة، كما كان لديه فريق للاستطلاع مهمته الاقتراب، وإن أمكن التسلل إلى صفوف الأعداء لمعرفة عددهم وعدتهم وما اتخذوه من تدابير.

كذلك كان الرسول ﷺ يوزع المهام على أصحابه، ولا يترك الأمر فوضى: فهناك المسؤول عن السلاح، والمسؤول عن الخيل، والمسؤول عن الإمدادات، كما كان له حرسه، ولم يكن الجيش - كما يصوره

المؤرخون - مجموعة من الناس تنطلق كيفما كان، وإنما كان يسوده النظام والانضباط ويأخذ بالتخصص: فهناك المشاة والرماة والفرسان، ولكل دوره المحدد، والجيش نفسه يتكون من ميمنة، وميسرة، ومقدمة، وساقة، فضلاً عن القلب، وهي خمسة أقسام؛ لذلك سمي خميساً، وكانت هناك فرق للاقتحام، وأخرى للهجوم الرئيس، وثالثة للتحرك في أعقاب المهاجمين مهمتها تطهير الميدان من فلول الأعداء، هذا بالإضافة إلى حامل الراية والأمير، ومن يخلف الأمير إذا هلك هذا، وغير هذا كثير مما لم يحظ بعناية المؤرخين.

وعلى هذه الصورة وبهذا الترتيب المحكم جرى ضرب الحصار على حي بني قريظة الحصين، فأحاط المسلمون بحصونهم لا يسمحون لأحد بالدخول أو بالخروج.

والمثير للدهشة ذلك الإصرار من جانب المؤرخين على القول إن المسلمين ضربوا الحصار على حصن بني قريظة، مما يجعل القارئ يفهم أنه لم يكن هناك غير حصن واحد ركز عليه المسلمون كل جهدهم حتى نجحوا في الاستيلاء عليه أو أرغموا من كانوا به على الاستسلام.. وهذا خطأ بلا شك، إذ أن هناك فرقاً كبيراً بين أن يوجه الهجوم ويضرب الحصار على حصن واحد أو على عدد كبير من الحصون.

وهو الفرق الذي ينعكس على الخطة الموضوعة للهجوم وتوزيع المهاجمين وتشكيل القوة المهاجمة واتخاذ الاحتياطات اللازمة إزاء ما يمكن أن يحدث من تعاون أو اتصال بين الحصون بعضها وبعض أو بينها وبين أعوان اليهود من المنافقين، ثم هناك الجهد المطلوب بذله، والوقت الذي يستغرقه الحصار، إلى غير ذلك من الأمور الهامة.

ويقول ابن كثير: كانت بنو قريظة - وهم طائفة من اليهود لهم حصن شرقي المدينة - وهم قريب من ثمانمائة مقاتل!

فأي حصن هذا الذي يتسع لهذا العدد من المقاتلين؟ وهو قول يخالف ما جاء في القرآن الكريم حيث يقول الله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ﴾ [الأحزاب: ٢٦] يعني حصونهم، ومنه سميت صياصي البقر، وهي قرونها؛ لأنها أعلى شيء فيها، فهي إذن حصون عالية قوية جيدة التسليح.

ويقول توماس أرنولد: إن المدينة كانت في زمن النبي محمد ﷺ تضم عدداً عظيماً من اليهود يقيمون في قلاع حصينة.

وإذا كان عدد المقاتلين اليهود ثمانمائة مقاتل، فمعنى ذلك أن هذه القبيلة كانت مكونة من حوالي ثلاثة آلاف ما بين رجال ونساء وأطفال لا يتصور أن يقيموا جميعاً في حصن واحد، خاصة أن الحصون في ذلك الوقت - وفي الحجاز على سبيل التحديد - لم تكن كبيرة بحيث تتسع لإقامة عدد كبير من الناس لمدة طويلة يمارسون حياتهم العادية من نوم وطعام وشراب وقضاء حاجة وغير ذلك، كما حدث حين حاصر المسلمون يهود بني قريظة لمدة خمسة وعشرين يوماً، وهو ما تذكره الروايات المختلفة.

لذلك نرجح أن يكون عدد حصونهم عشرين حصناً، وهذا التقدير لم يقم على أساس ما يمكن أن يتسع له الحصن من أفراد، فهذه الحصون لم تكن مباني عامة أنشئت بغرض حماية كل السكان من اليهود، وإنما كانت مساكن لأصحابها من ذوي الجاه والثراء تأخذ شكل الحصن لكي يحتما بها ومعهم أموالهم وثرواتهم، أما بقية اليهود ممن ليسوا على ثراء أو لا يملكون ما يخشون عليه فقد كانوا يقيمون في بيوت بنيت من مواد محلية كاللبن وسعف النخل وسوقه، ومن مواد أخرى كالخشب يستخدمونه للتوافد والأبواب، وهو من النوع الصلب الثقيل، وغالباً ما كانت الحصون تقام بطريقة تُمكن المقيمين فيها من توفير الحماية لسكان البيوت الذين كانوا يتركون بيوتهم ليختبؤوا في هذه الحصون إلى أن يزول الخطر.

ولا يذكر لنا المؤرخون المسلمون شيئاً مما حدث بعد أن ضرب الرسول ﷺ الحصار على آخر مستوطنة يهودية بالمدينة، ولا ما جرى من الثمانمائة مقاتل يهودي، وإنما اكتفوا بالقول: إن الحصار استمر خمسة وعشرين يوماً في قول، وشهراً كاملاً في قول، وكأن الفرق بين القولين - وهو خمسة أيام من المعاناة والقلق - ليس بذي شأن، وكأن الفريقين ظلاً ساكنين ينظر أحدهما إلى الآخر: المسلمون حيث يقفون حول الحصون، واليهود من فوق الأسوار ومن خلال نوافذ حصونهم، إلى أن اعتراهم الملل، ونال منهم الخوف والفرع، فطلبوا من الرسول ﷺ أن يبعث إليهم بواحد من المسلمين هو أبو لبابة بن عبد المنذر الأنصاري ؓ، من الأوس، لكي يستشيروه، فأرسله، فلما رأوه قام إليه الرجال، وبكى النساء والصبيان، فأشار بيده إلى حلقه أنه الذبح.

وليس من شك في أن الأمر كان على خلاف ذلك، فقد حاول اليهود أن يردوا المسلمين عن حيههم ويفكوا حصارهم لخصونهم، ولا شك أيضاً في أن يهود بني النضير حاولوا أن يقدموا لهم المساعدة، فقد كان زعيمهم حيي بن أخطب محاصراً هو الآخر منذ انسحاب الأحزاب، بل ولا نستبعد أن يكون بعض المنافقين والسذج، أو من كانوا يحسنون الظن باليهود من الأوس حلفاء بني قريظة، ومن الخزرج أنصار عبد الله بن أبي قد رقوا لحالهم وحاولوا أن يفعلوا شيئاً لأجلهم، ولكن كل هذه المحاولات باءت بالفشل أمام إصرار المسلمين على هزيمة بني قريظة وإنزال العقاب الرادع بهم جزاء خيانتهم وغدرهم.

ومما يدل على وجود ميل لدى بعض الأوس نحو بني قريظة، ما فعله الرسول الله ﷺ من ترك الحكم على بني قريظة لرعيم الأوس سعد بن معاذ ؓ، فقد أحاط الأوس بالرسول ﷺ يقولون له: افعل في موالينا مثلاً فعلت في موالي الخزرج، يعني بني قينقاع وبني النضير، فقال لهم: ألا ترضون أن يحكم فيهم سعد بن معاذ؟ قالوا: بلى.

وهنا يثور تساؤل بشأن السبب أو الأسباب التي جعلت الأوس يطلبون من الرسول ﷺ أن يعامل بني قريظة كما عامل بني قينقاع، على الرغم من الفارق الكبير بين ما فعله هؤلاء وما فعله أولئك: فبنو

قينقاع دبوا ومؤامرة لإثارة الفتنة بين العرب، وذلك عندما كشف أحدهم عن عورة المرأة المسلمة، في حين أن بني قريظة فعلوا ما هو أخطر من ذلك، حيث نقضوا العهد مع الرسول ﷺ، وتحالفوا مع المشركين في أخطر غزوة وهي غزوة الأحزاب، فأصبحوا مصدر تهديد حقيقي وهم في مواقعهم فوق المسلمين، فلو أن الحرب وقعت واشتركوا فيها فعلاً لتمكنوا هم والمشركون من سحق المسلمين وقتل الرسول ﷺ.

فهل كان إلحاح الأوس في المطالبة بمعاملة بني قريظة مثل معاملة بني قينقاع وبني النضير سببه ألا يكون وضعهم عند الرسول ﷺ أدنى من وضع الخزرج، وهو أمر يعتبرونه مأساً بكرامتهم وشرفهم، بغض النظر عن التفاوت في الذنب، خاصة أنه قد جاء في تفسير القرطبي أنهم قالوا: يا رسول الله، وقد علمت أنهم حلفاؤنا، وقد أسعفت عبد الله بن أبي بن سلول في بني النضير حلفاء الخزرج، فلا يكن حظنا أوكس وأنقص عندك من حظ غيرنا، فهم مواليـنا - أو أن مطالبتهم بأن ينال بنو قريظة نفس المعاملة التي نالها بنو قينقاع يرجع إلى العاطفة والوفاء، حيث سبق لبني قريظة أن أوهموهم بأنهم يناصرونهم ضد الخزرج، إيماناً منهم بقضيتهم، وليس بدافع الرغبة في تأجيح الخلافات بينهم.

وهكذا نلاحظ أن البعض ممن أسلموا كانوا لا يزالون يولون الأمور ذات الطبيعة العصبية، اهتماماً يفوق اهتمامهم بالمصالح العليا لجماعة المسلمين، ومع ذلك فإن الرسول الكريم ﷺ كان يعاملهم برفق، ولا يحاول أن يصدم مشاعرهم، أو أنه كان يجد أن مستواهم الفكري البسيط لا يحتمل أن يدخل معهم في حوار لبيان لهم الفرق بين ما يريدونه استناداً إلى النعرة القبلية، وما فيه مصلحة الإسلام والمسلمين.

وهكذا كانت معارك الرسول ﷺ ليست مع أعداء الإسلام من مشركين ويهود فقط، بل ومع بعض المسلمين الذين لم يرتقوا بفكرهم إلى مستوى الأحداث.

ولم يكتف الأوس بأن عهد الرسول ﷺ إلى سعد بن معاذ ؓ بالحكم على اليهود، بل ترقبوا وصول سعد ؓ من المدينة إلى حيث يقع حي بني قريظة على أميال منها، ولادوا به يقولون له: يا سعد، إنهم مواليك، فأحسن فيهم، ويرفقونه عليهم، ويعطفونه.

أما اليهود فقد قالوا لسعد يومئذ: يا أبا عمرو، حلفاؤك ومواليك، وأهل النكاية (يقال: نكيت في العدو نكاية: إذا أكثر فيهم الجراح والقتل. يصفهم بالبأس والشدة)، ومن قد علمت.

ولكن كل هذه التوسلات لم تنجح، فإن سعداً ؓ نحى مشاعره جانباً، ولم يفعل كما فعل عامة الأوس، فنظر فقط إلى ما فعلوه وما كان سيترتب عليه من كل نتائج وآثار بالغة الخطورة، خاصة أنه هو نفسه قد حذرهم من مغبة أعمالهم، فشتموه وأسأؤوا إلى الرسول ﷺ، فكان أن حكم أن تقتل المقاتلة، وتسبى الذرية والنساء، وتقسّم الأموال، فضربت أعناقهم وكانوا ستمائة أو سبعمائة، وقيل: ما بين سبعمائة وثمانمائة، وفيهم حيي بن أخطب سيد بني النضير، وكعب بن أسد سيد بني قريظة.

ولقد كشف حيي بن أخطب في الكلمة التي قالها قبل أن يقتل ما ثبت أن العفو عنه وعن بقية اليهود ما كان ليؤدي إلى عدولهم عن موقفهم من الإسلام ومن المسلمين، وإنسا كانوا سينسحبون من المدينة ليعيدوا تنظيم صفوفهم ويدبروا لغزوة أشد خطورة وأكثر إحكاماً من غزوة الخندق التي فشلت، فقد قال يوجه كلامه للرسول ﷺ: **وَاللَّهِ مَا لُمْتُ نَفْسِي فِي عَدَاوَتِكَ.**

وهكذا حاقت الهزيمة بثالث كبريات القبائل اليهودية في المدينة بني قريظة، ونزل فيهم قول الله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ۚ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطْعُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ۝﴾ [الأحزاب].

وقال بعض المفسرين: إن ﴿وَأَرْضًا لَّمْ تَطْعُوهَا﴾ هي «خير» والتي كانت أكبر مستوطنة يهودية في الحجاز لا يقيم بها غير اليهود، وعلى الرغم من أن غزوها وقهر من كانوا بها يلي في الترتيب، فإننا سنؤجل الحديث عنها إلى الفصل الثالث والأخير، نظراً لارتباط فتحها بموضوع هام جداً هو زواج الرسول ﷺ بالسيدة صفية بنت حيي بن أخطب رضي الله عنها، وما قيل فيه، أي في هذا الزواج من آراء بعيدة كل البعد عن الصحة، وسنستمر مع بقية المستوطنات اليهودية الأخرى التي أخضعها المسلمون وقضوا على سيادة اليهود عليها.

لا شك أن أخبار الغزوات التي غزاها الرسول ﷺ لليهود، بالطريقة التي وردت بها في كتب السيرة، والتاريخ الإسلامي - تطمس الرابطة التي تربط هذه الغزوات بعضها ببعض، كما أنها تطمس الباعث الحقيقي عليها، والهدف الحقيقي الذي استهدفته، فتظهرها كما لو كانت أعمالاً عسكرية متفرقة جرت بطريقة عشوائية، أو كيفما اتفق، وهذا غير صحيح على الإطلاق.

ذلك لأن المعركة مع اليهود لم تكن تقل أهمية عن المعركة مع قريش والمشركين عموماً، بل ربما تفوقها لأسباب عديدة: منها: أن المشركين كانوا عرباً، أصحاب البلاد، على خلاف اليهود الذين رأينا كيف غزوا الجزيرة العربية واستوطنوا الكثير من مناطقها الهامة، وأقاموا فيها دويلات تملك الثروة والقوة والسلطان.

كذلك، فإن ترك العرب الشرك واعتناقهم الإسلام، إذا حدث، مع بقاء اليهود الدخلاء، وهم أصحاب دين يقوم على التوحيد أيضاً، ولو في صورة مشوهة بعد أن عبث اليهود بالتوراة - كان سيؤدي إلى صراع بين الدينين لا يعلم مداه إلا الله، ومن يقرأ تاريخ الدعوة الإسلامية فسيرى كيف أن اليهود لم يكفوا عن مناوأة الرسول ﷺ وتكذيبه وإشاعة الشكوك والريب حول دعوته.

ليس ذلك وحسب، بل إن كثيرين منهم ممن اعتنقوا الإسلام كانوا لا يتورعون عن التشكيك في نبوة الرسول ﷺ، وبالذات أثناء غزوة تبوك.

ومن الأسباب أيضًا، أن بقاء اليهود بين ظَهْرَانِي العرب كان من شأنه أن يتيح لهم الفرصة لممارسة سياستهم الهادفة إلى تأليب العرب بعضهم على بعض ببعث الخلافات القديمة من مرقدها، وخلق الصراعات بين القبائل العربية، وهو ما كان رسول الله ﷺ حريصًا أشد الحرص على منعه بكل السبل، حتى لا تتبدد قوى المسلمين ويستمرروا - كما كانوا - ضعافًا مقهورين يستذلهم اليهود والفرس والروم. وحيث إن اليهود قد رفضوا منذ البداية التصديق بنبوة الرسول ﷺ، وناصبوا الإسلام العداء، وخالفوا عقد المودعة، فإن طردهم من الجزيرة العربية أصبح أمرًا لا مفر منه، منعًا لشرورهم وتلافياً لخطرهم.

ولكن كيف يتم ذلك؟ هذا هو ما كان الرسول ﷺ يفكر فيه، مع أخذه بعين الاعتبار قوتهم التي كان يُقال عنها الكثير، ولكنها ليست معروفة على وجه التحديد، وهو ما كانوا يحرسون عليه أشد الحرص، كما هو دأبهم الآن؛ لما لذلك من دور في إخافة أعدائهم وجعلهم يترددون في الهجوم عليهم. وكذلك خطتهم في إقامة المستوطنات، التي روعي فيها أن يكون بعضها رديفًا لبعض بحيث يكون من السهل تقديم العون والدعم والمساعدة من المستوطنات المتأخرة إلى المستوطنات المتقدمة، واستخدام الأولى كخط رجعة في حالة ما إذا نزلت الهزيمة بالثانية، فليجأ إليها المنسحبون بأموالهم وأسلحتهم وعتادهم، وهو ما فعله بنو قينقاع وبنو النضير، فقد قصد الأولون أذرعات، في حين قصد الآخرون خيبر، التي تضاعفت قوتها وزاد خطرهما.

ولذلك فإن بعض المستشرقين يعتبرون فتح خيبر أول فتح فعلي يقوم به المسلمون، وهذا صحيح من جميع الوجوه، فلقد كانت خيبر مستوطنة يهودية خالصة لا يقيم بها غير اليهود، تتميز بالتسليح الجيد والحصون القوية المنيعة، وبوجود المقاتلين الأشداء المشهورين بين العرب واليهود على السواء.

وإذا كان اليهود قد فقدوا مستوطناتهم في المدينة، فإنهم عللوا ذلك بوجودها في متناول أيدي المسلمين، وذلك بخلاف المستوطنات الأخرى، وعلى رأسها خيبر، التي كانت بعيدة عنهم بمسافة طويلة، وهذا ما جعل اليهود يمنون أنفسهم بالنصر على المسلمين إذا ما فكروا في الهجوم عليها؛ نظرًا لبعد الشقة وما يترتب عليها من معاناة، فضلًا عما يتوفر لتلك المستوطنة من مزايا لا شك أنها ستتيح لها التفوق على المسلمين.

وكانت خطة الرسول ﷺ بعد أن قضى على المستوطنات الثلاث في المدينة، أن يقضي على أكبر وأخطر المستوطنات اليهودية التي تنتشر بين المدينة والحدود الشمالية للحجاز، وذلك لأسباب عديدة، منها: أنه لا يصح أن يتجاوز خيبر ويوجه هجمته إلى ما يليها شمالًا؛ لأنه بذلك سوف يجعل ظهره مكشوفًا لليهود خيبر ويعرض جيشه لهجومهم، فيقع بين فكي الكاشطة وتلحق به الهزيمة.

هذا فضلاً عما سيؤدي إليه ذلك من انقطاع اتصاله بقاعدته في المدينة، مع احتمال أن يؤلب اليهود القبائل العربية عليه، فتهاجم المدينة وليس فيها إلا عدد ضئيل من المسلمين لا يمكنهم الدفاع عنها.

وهكذا كان لسقوط خيبر دوي هائل صك أذان اليهود على طول المنطقة الممتدة إلى الحدود الشمالية مع الإمبراطورية البيزنطية، واعتراهم خوف شديد؛ ولذلك فإن الرسول ﷺ لم يكذبته من خيبر حتى توجه بجيشه إلى وادي القرى القريب من خيبر، فحارب عليه الحصار بضعة ليال، أخذ اليهود أثناءها يقدفون المسلمين بسهامهم من وراء حصونهم، فأصابوا خادماً لرسول الله ﷺ، فقتلوه، ولكنهم ما لبثوا أن أدركوا عقم مقاومتهم، وأنهم لن يفلحوا حيث فشل يهود خيبر فعرضوا الصلح على الرسول ﷺ، على أن يؤدوا الجزية ويخضعوا للمسلمين ويعملوا لهم كمزارعين في الأرض مقابل نصف المحصول.

واستمر تأثير الهزيمة التي لحقت بخيبر، في اليهود القريبين منها، فبادر يهود تيماء الذين كانوا يكونون عداء شديداً للرسول ﷺ إلى إظهار استعدادهم للخضوع للمسلمين مختارين، وشجعهم على ذلك ما لقيه إخوانهم في وادي القرى من حسن المعاملة، وظلوا يعملون في أرضهم نظير أداء الجزية.

كذلك فعل يهود فدك الذين أصابهم رعب شديد لما سمعوا بهزيمة وسقوط خيبر، فبعثوا إلى الرسول ﷺ يصالحونه على النصف من فدك فقبل ذلك منهم وتم إبرام الصلح.

وهكذا أدى سقوط المستوطنة اليهودية القوية في خيبر إلى سقوط ثلاث مستوطنات يهودية أخرى هي: وادي القرى، وتيماء، وفدك، ولكن ابن سعد في طبقاته ذكر مستوطنة يهودية أخرى هي «الجرباء» قال إنها استسلمت هي الأخرى.

ولكن بقيت ست مستوطنات أخرى في أقصى الشمال يجب القضاء عليها، حتى يتخلص الحجاز كله من تسلط اليهود واستغلالهم، ويأمن غدرهم وخيانتهم.

صحيح أن المدينة كانت قد تطهرت منهم، ولكن منطقة الحدود الشمالية المتاخمة لدولة الروم كانت ما تزال تحت سيطرتهم هي والطرق التجارية الهامة التي تصل الجزيرة العربية بالشام وفلسطين ومصر.

[المستوطنات اليهودية للمجلوب ١٠١-١١٧].